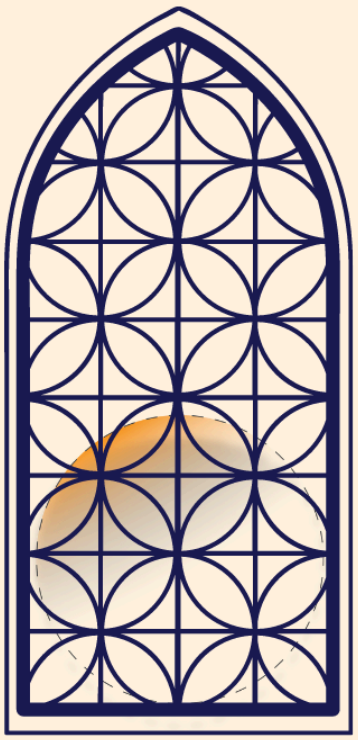

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء العاشر

الاثنين 10 رمضان 1443

سورة التوبة (50 - 55)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبدأ مستعينين بالله، سائلين الله القبول في هذه الأيام المباركات، التي هي فرصة لأهل الإيمان، يتميّزون فيها عن أهل النفاق بإقبالهم على طاعة الله، صادقين في ذلك وراغبين إلى الله. يتميّز أهل الإيمان بحبهم لطاعة الله، ورغبتهم في ذلك، يتميّز أهل الإيمان بأنهم يجدون مواسم الطاعات وأوقاتها فرصًا عظيمة لهم، ويتمنون بقائها دائمًا، ويسألون الله دائمًا الإعانة عليها، ويرغبون فيما عنده ويتقربون إليه بما يستطيعون، وهم في كل هذا يعلمون أنهم لا يؤدون من حق رب العالمين شيئًا، إلا أن ربنا -سبحانه وتعالى- قد حدثنا عن نفسه فقال مخبرًا عن صفاته إنه غفور شكور، فلولا أنه غفور شكور ما كانت هذه الأعمال الضعيفة تفعل شيئًا أمام نعم الله،

لكن هكذا أهل الإيمان؛ ممتلئة قلوبهم بالإيمان، راضين بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد -صلّى الله عليه وسلّم- رسولًا.

سنرى فيما نسمع من آيات مختارات للدراسة اليوم في سورة التوبة الفرق العظيم بين المؤمنين والمنافقين في باب عظيم من أبواب الدين، يتبيّن لنا بعد ما نسمع الآيات، إن شاء الله.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (50) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (52) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55))

هذه الآيات الكريمات من سورة التوبة وهذه السورة لها خصوصيتها، سورة عظيمة نزلت تفرق بين أهل الإيمان وعقائدهم، ومسالكهم، وأهل النفاق وعقائدهم، ومسالكهم.

وهذا نور عظيم، على المؤمنين طلب معرفة الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق؛ لأن ظاهر صفات المنافقين يشبه ظاهر أحوال أهل الإيمان، لكن البواطن هي التي فيها فوارق، ثم إن هذه البواطن تستلزم بعض الأعمال التي فيها فرق أيضًا، فأهل الإيمان بعيدون عن المكر وأهل النفاق من أهل المكر، والسورة كانت تظهر مكرهم.

ونعيد ونكرر أن على أهل الإيمان أن يطلبوا هذا النور من القرآن الذي يفرقون به بين صفات أهل الإيمان وصفات أهل النفاق؛ لأن يوم القيامة سيحصل حدث عظيم جدًا، وخطير ويكون في تلك الساعة شأنه مصيري، كما أخبر -سبحانه وتعالى- في سورة الحديد:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا) انتظرونا؛ لأن أهل الإيمان يسرعون في النفاذ في ذلك اليوم العظيم إلى النجاة، فيقولون لهم: (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ) هذا النور الذي قد كسبتموه في الدنيا من القرآن وعرفتموه.

فيرد عليهم: (قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا)! فيأتي هذا الحدث العظيم: (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ) بمعنى: ألم نكن نشهد شهادتكم، ونصلي صلاتكم، ونصوم صيامكم، ونجلس مجالسكم، ومظهرنا مظهركم، هنا السر الذي يجب أن يلاحظه أهل الإيمان ومن ثم يفرقون جيدًا بين صفات أهل الإيمان وأهل النفاق.

(قَالُوا بَلَى) كنتم معنا وكانت كل هذه المظاهر موجودة لكن المخابر مختلفة (وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) هذا ما حصل لكم! هذا ما حصل منكم! هذه بواطنكم وظواهركم والله وحده المستعان.

هنا وجب على أهل الإيمان أنه حين تأتيهم سور فيها أخبار عن المنافقين أن يكونوا في غاية العناية بهذه السور.

ستظهر لنا مجموعة من الأمور التي تتصل بالعقيدة وتتصل أيضًا بالسلوك تفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق، فنبدأ هنا بتصور هذا الكيد الذي يدل على خبث بواطنهم، ما هو هذا الكيد؟

يظهر في كونهم يتمنون الشر لأهل الإيمان ويكرهون الخير لأهل الإيمان، ومن ثم يكيدون لأهل الإيمان.

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ)

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ) هم يقولون إنهم من أهل الإيمان ومن يكون من أهل الإيمان يحب نصرة الإيمان، ويحب نصرة الحق، ويحب نشر هذا الحق. هذه هي عقيدة المؤمن أنه يحب الحق، ويحب انتشار الحق، ويحب نصرة الحق، وعكس ذلك يكره الباطل، ويكره انتشار الباطل، ويكره انتصار الباطل.

لكن هؤلاء يظهرون أنهم من أهل الإسلام وبواطنهم، والعياذ بالله، غاية في الخبث، وهنا في هذه السورة التي جوّها يدور حول غزوة تبوك وما فيها من أحداث، وما فيها من صعوبات، وكانت من أعظم الاختبارات التي مُيِّز فيها أهل الإيمان عن أهل النفاق.

لكن نحن ننظر للأمور على وجه العموم (إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ) أيًّا كانت من فتح أو ظفر أو غنيمة، أي حسنة تصيب أهل الإيمان وتظهر أنهم في أحسن حال، وتظهر استقرار أمرهم، هذه الحسنة التي ربنا يعطيها أهل الإيمان تسيء بهؤلاء ويرون أنها آذتهم! (تَسُؤْهُمْ) تورثهم مساءة، يشعرون أنهم متضررون، وهذا لفرط عداوتهم!

(وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ) يعني شدة والدنيا لا تخلو أبدًا من أن يكون هناك يوم شدة، وأن يكون هناك يوم رخاء، فإذا أصابك الرخاء حزنوا واغتموا، وإن أصابتك الشدة المصيبة، انظروا

ماذا يفعلون عندما يصيب أهل الإسلام المصيبة، خصوصًا التي تكون مصيبة عظيمة ويكون فيها شيء من ظهور الضعف لأهل الإسلام، يقولون وهو متبجحين بهذا القول: (يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا)، هم يمدحون آراءهم، يعني تلافينا أن نقع في هذا الخطأ، سواء كان بمخالفة أهل الإيمان، أو سواء كان بتركهم شيئًا من الدين، ويرون أنهم بهذا قد كانوا حذرين متيقظين، حازمين في أمرهم، ويتولون ويعرضون عن أهل الإيمان وعن نصرتهم ويقبلون على ما صنعوا وقرروا بحالة من الفرح.

فنرى أن أهل الإيمان يختلفون عن أهل النفاق اختلافًا عظيمًا، لا بد لنا أن نطلب هذا الأمر من أنفسنا، لا بد أن نطالب نفسنا بهذه العقيدة السوية التي عند أهل الإيمان ونحذر من عقيدة أهل النفاق.

أهل الإيمان كلهم كالجسد الواحد «إذا اشْتَكى مِنهُ عُضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمّى»[1] فأهل الإيمان إذا أصابت أهل الإيمان، في أي مكان حسنة من ظهور الدين ومن استقرار الأمر وحصول الأمن، سواء كان هذا شعوبًا أو أفرادًا، يكون الإنسان في حالة سرور، وإن أصابت أهل الإيمان مصيبة عدنا إلى عقيدتنا التي سيأتي الكلام عنها في الآية التالية، وبهذا في بداية الأمر نكون مختلفين عن هؤلاء

---

[1]() صححه الألباني.

المنافقين لأننا لا نرى إلا أننا جسد واحد، وخصوصًا لو كانت الحسنة أو المصيبة في الدين، فإن أي مكان يحصل فيه ظهور لآثار الإيمان، يحصل عند أهل الإيمان الفرح به، وأي مكان يقع فيه مصيبة على أهل الإيمان بنقص في دينهم يقع في القلب المساءة والحزن؛ لأننا يهمنا أمر ديننا، ويهمنا أمر أهل الإسلام في أي مكان كانوا، فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم، ونرجو من الله أن ييسر لهم أمرهم، فلا نحن نعيش أفرادًا ومجتمعات مهتمين بأنفسنا وتاركين شأن غيرنا، ولا نحن بالشامتين بمن يقع عليه شأن في أمر دنياه أو في أمر دينه.

لكن هؤلاء أصحاب النفاق الذين امتلأت قلوبهم حقدًا على أهل الإيمان، وإن كانوا يخالطونهم ويؤاكلونهم ويشاربونهم وينتفعون منهم، هؤلاء يجدون أنفسهم حذرين من أن يقع عليهم شيء من شأن دنياهم، وهم ما عندهم أي إشكال في أن يبيعوا دينهم لأجل سلامة دنياهم.

فإذا وجدوا المسلمين متمسكين بدينهم، ولأجل دينهم حصل عندهم شيء من المصائب، جعل أهل النفاق بيعهم لدينهم كأنه مكسب؛ لذلك يكون منهم هذا القول (قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا) كنا فاهمين الحياة وفاهمين أن هذه المثالية وهذه الطاعات وهذه العبادات لا تنفع اليوم، ويرى نفسه عندما كان مرابيًا أو مرتشيًا أو يفعل أي كبيرة من الكبائر، يرى نفسه أنه قد أخذ أمره وعاش دنياه، ليس مثلك لست تعيش دنياك وفي النهاية

نزلت عليك المصائب! فيكون منهم الفرح برأيهم، والفرح بما أصاب أهل الإسلام وبما سلموا هم منه.

مثلا لو فيهم أحد أتى ووجد فرصة في عمل أو في مساهمة ربوية وأنت قلت: (هذه المساهمة الربوية لا أدخل فيها وإنما سأدخل في تجارة) هو كثر ماله وأنت خسرت، فيحصل منه الفرح ويقول لك: (ألم أقل لك اترك عنك هذا، اليوم لا تسير الدنيا إلا بهذه المعاملات، إلا بهذه الفوائد، وهكذا) لكن رب العالمين والحمد له وحده لا شريك له، علمنا كيف نجيب مثل هذه الأمور إذا تعرضنا لها وكيف نبطل هذه المسرة التي دخلت إلى قلوبهم:

(قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

الجواب الأول: (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا).

الجواب الثاني: (هُوَ مَوْلَانَا).

الجواب الثالث: (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

علينا أن نفهم هذه الأجوبة الثلاثة بطريقة دقيقة لنعيش بها حياتنا، ولكيلا يتسلط علينا المنافقين ويتسلط علينا أهل الشر فيجعلونا نتنازل عن الدين لأمور قد قدرها الله واختبرنا بها، فأنت تستقيم وقد تنزل عليك مصيبة، وتستقيم ويعطيك رب العالمين. لكن لا تتصور أن جزاء الاستقامة هنا، إنما هي

أقدار واختبارات، يختبرنا الله هل نحن عنه راضون؟ يختبرنا الله بهذه الأقدار، وجزاء النجاح في الاختبار عندما نلقاه، أما الدنيا فلا بد أن يكون فيها مسرة ومضرة، رخاء وشدة، ضيق وسعة، هذه سنة الله واختبار الله، ويظهر في ذلك حقائق الناس.

فأهل الإيمان هذه حالهم؛ ابتلوا ببلاء، خاصة البلاءات التي يكون سببها استقامة الإنسان أو البلاءات على وجه العموم.

يقول أحد: (أنتم أسلمتم وآمنتم ودعوتم ربكم وها أنتم في نفس الحال، وأهل النفاق يصفون أنفسهم أنهم عاشوا دنياهم وفعلوا وها هي حالهم بعيدة عن المصائب) هم يتصورون هذا وإلا لا مصيبة أعظم من قسوة القلب، فهذا هو الجواب: (لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) نحن نعلم أن كل شيء يحدث بقضاء وقدر، لن يصيبنا خيرًا ولا شرًا، ولا شدة ولا رخاء، ولا خوف ولا رجاء إلا وهو مكتوب عند الله، وهذه الأقدار هي اختبارنا فكيف نعيش في الاختبار ونريد ألا تأتينا أسئلة اختبار، أنت في اختبار والكتاب هو المنهج الذي تدرسه والأقدار هي أسئلة الاختبار، هل أنت محسن الظن بالله، هل أنت واثق بالله، هل أنت راض بالله، هل تعلم عن الله أنه حكيم، أنه على كل شيء قدير، أنه بكل شيء عليم، هل تعلم أن الدعاء هو منفذك إلى الفلاح والصلاح؟ هل تعلم أن التوبة هي طريقتك لكي تمحو ما مضى من ذنوب وتفتح صفحات

جديدة مع رب العالمين فتجد خيرًا من رضا ينزل لقلبك وسكينة؟

الأقدار هي الأقدار، لكن الفرق كيف نقرأ هذه الأقدار، كيف نراها سببًا للعلم عن الله، هذه الأقدار تعلمنا من هو الله. تمر علينا أحوال فيَصل الإنسان إلى حال اليقين.

ونتذكر دائمًا ما ضرب الله مثلًا لنا وبيّنه وبيّن حقيقة ما حصل في سورة البقرة لما أمات الله رجل مئة عام ثم أحياه ليتعلم درسًا عظيمًا وهو أن الله على كل شيء قدير، فلنعلم أن كل الأقدار التي تمر علينا تعلمنا من هو الله، الله -عزّ وجلّ- يحدثنا عن نفسه في كتابه ويحدثنا عن نفسه في أقداره، ومن سمع حديث الله عن نفسه في كتابه، فهم حديث الله عن نفسه في أقداره.

لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فكل هذا قد سبق في علم الله، وما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، فالله -سبحانه وتعالى- قد قدّر الأقدار وهو الحكيم، وهي كلها اختبارات، ونحن متأكدون أن هذه الاختبارات ينتج منها ناجحين وفاشلين، فائزين وخاسرين، فنحن نرجو من الله أن يجعلنا من المؤمنين الفائزين الرابحين.

وأيضا نحن مؤمنون أن عاقبة أمر الحق إلى ظفر وإلى ارتفاع. يمر أهل الإيمان بأوضاع مختلفة في السرور وفي الغم، إلا أن في العاقبة الدولة لأهل الإيمان، والفتح والنصر

والظفر إنما من جانبهم، فنحن بالله واثقون، وسيتبيّن بعد ذلك لماذا هذه الثقة، ونتيجة هذه الثقة؛ أننا على الله متوكلون.

يأتينا في هذا السياق الأمر الثاني الذي نعتقده اعتقادًا ينزل على القلوب برد اليقين، بردًا وسلامًا:

(هُوَ مَوْلَانَا) -سبحانه وتعالى-، كيف وهو مولانا الذي تولى أمورنا وهذه صفاته العظيمة، كيف نشك في لحظة أنه لا يريد بنا خيرًا؟!

مولانا، نحسن الظن به، يتولى أمورنا، ونحن متأكدون أن مولانا ما أراد لنا إلا خيرًا، ابتلانا بالمضائق وأعاننا على هذه المضائق بالصبر والرضا بها، ويعطينا من الأجر ما هو خير منها، فمولانا لا يريد لنا إلا أن نربح عليه.

الله -عزّ وجلّ- هنا يلقننا ماذا يجب علينا أن نعتقد، (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) نحن متأكدون من هذا، فلا تفرحوا بمصابنا، فإننا بفضل الله في حال من الرضا بما قسم الله؛ لأن العدو يفرح بمصاب عدوه عندما ينكد عليه، فإذا علم أهل النفاق أن أهل الإيمان لا يحزنون حين يصيبهم البلاء، وأنهم بقدر الله راضون، وأنهم يريدون رضا ربهم؛ لأنهم واثقون بأن الله سينصر دينه، وبأن الله لا يتركهم فهو مولاهم، الله مولاهم لن يتركهم أبدا. لن يصيبنا إلا ما قدره الله لنا، ونحن نرجو من ربنا أن يكتب لنا ما فيه خيرًا عاجلًا وآجلًا لأن المولى لا يرضى لمولاه الخزي، بل المولى يفتح لمولاه

أبواب النصر وأبواب الصلاح والفلاح والخير، فلن نحزن لأن هذا الذي أصابنا أتانا من مولانا الذي نحن نعرفه.

الأمر الثالث: كل هذا يدفعنا أن نتوكل على الله (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) وإذا توكلوا واعتمدوا على الله سيرون من عطاء الله ما لا يستطيعون وصفه أو نقله أو بيانه، سيرون سكينة تنزل على قلوبهم، وأسبابًا تمد لهم، وتوفيقًا في قراراتهم، وهدوء وسكينة في أحوالهم.

هذا حال أهل الإيمان، واثقون من الله ويعرفون أن أي شيء أصابهم إنما هو بقدر الله، وأن مولاهم الله لن يخيبهم أبدًا، أراد بهم الخير الكثير، نزل عليهم المصاب ووفقهم للصبر والرضا بهذا المصاب وأعطاهم الأجور العظيمة ويوم القيامة يجدون هذا مدخرًا عند رب العالمين، فيطمئنوا ويتوكلوا على الله وتسير الأمور في حياتهم على ما يرضي الله. ولنعلم أن هذا لا يكون إلا من أهل الإيمان؛ لذلك وجدنا هنا الجملة محصورة، (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) هذا يفيد الحصر، أن هذا التوكل لا يكون إلا من أهل الإيمان، أما أهل النفاق فهم بالضد لأنهم لا يتوكلون إلا على الأسباب الدنيوية واللذات العاجلة الفانية.

فنحن نتوكل على الله مؤمنين بالله، ولأنه لا ناصر ولا متولٍ لأمرنا غير الله.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)

ثم نلقن أيضًا جواب آخر، هذا الجواب الثاني عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين، وهذا الجواب خاصة فيما يحصل فيه تضحية من أجل الدين سواء كان هذا في الغزو أو في غير ذلك. هذا الجواب مبني على أن الدنيا ماذا ستكون؟ ماذا في الدنيا، ما الاحتمالات الموجودة في الدنيا؟

في شأن الدنيا إما يربح الإنسان في غزوه، مثلا، أو يُهزم، أو لو خرجنا عن الغزو وقلنا إنه استقام على أمر الله وفعل ما أمره الله في أي شأن من الشؤون، ولم يدخل مع هؤلاء في ربا ولم يخدع الناس ولم يأكل أموال الناس بالباطل ولم يرتشي، أولئك فعلوا وفعلوا، في النهاية الدنيا ستنتهي على ماذا؟

إما أن يربح الإنسان شيئًا في الدنيا، أو يخسر شيئًا في الدنيا، لكن هو ما دام أنه سائر على ما يريد الله، ماذا ستكون النتيجة في حق أهل الإيمان فقط؟

أي عاقبة ستكون حسنى بالنسبة لأهل الإيمان، هل تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى بالنسبة لأهل الإيمان

- إذا كنا نتكلم عن الغزو فهي النصر أو الشهادة.

- وإذا كنا نتكلم عن الدنيا فهو إما أن يخسر الإنسان شيئًا أو يكسبه.

بالنسبة لأهل الإيمان، والأمر أصلًا مكتوب عند الله، في الحالتين هذه العاقبة حسنة لأن الإنسان استقام على أمر الله وقام بما يجب عليه، فأي عاقبة في حقه تكون حسنى ما دام هو مؤمن بقضاء الله، عالم أن الله مولاه، متوكل على الله، فهو سائر في الطريق المستقيم، قائم بما يحب رب العالمين. أي نتيجة ستكون حسنى في حقه، وهذا من أعظم ما يهدئ قلوب أهل الإيمان، أن الربح والخسارة في الدنيا وبمقاييس الدنيا ليست هي الحقيقية، إنما الفوز العظيم، الفو الكبير، الفوز المبين هو ما عند رب العالمين.

ولنتأمل في سورة البروج؛ تصور أن دخولهم إلى النار التي حفرها لهم أصاب البروج، أن دخولهم لها نتيجته الفوز الكبير؛ لأن ربنا لما قال: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) حرقوا المسلمين فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، والذين حُرقوا (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[2] إما أن يلقوا في النار ويحرقوا لأجل أن يلحقوا ذلك الفوز الكبير فذلك أمر هين، ففي كلا

---

[2]() البروج: 10-11.

الحالتين هي حسنيين، وربنا لطيف بعباده لا يحملهم ما لا يطيقون.

هذا حال أهل الإيمان لو لاحظنا.

حال أهل النفاق: (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ) هذه هي الخسارة الحقيقية؛ أن يعرض الإنسان نفسه لعذاب الله، أما أن يجد الإنسان نفسه قد قام بما أمره الله على ما يحب الله، فهذه ليست خسارة، مهما كانت النتيجة، ونحن نتربص ننتظر حصول المصاب عليكم، (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ) ننتظر هذا، لكن نحن أي شيء يصيبنا فهو حسن، أما أنتم يا أهل النفاق ستصيبكم أحد السوأتين من العواقب

- إما يصيبكم عذاب من عنده كما أصاب الأمم من قبلكم.
- (أَوْ بِأَيْدِينَا) الله -عزّ وجلّ- يمكننا منكم بأي حال من الأحول.

إما تزولوا ويمحق الله بركاتكم ويذهب ما عندكم من أموال، إما بشأن خارج عن أيدينا (أَوْ بِأَيْدِينَا) نفعل هذا الشيء، الله يمكننا منكم.

ثم خُتمت الآية بقوله: (فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ) كل فريق سيتربص للآخر، وإن كان أهل الإيمان متربصين، ناظرين في فعل الله وراضين بما يقسم الله وواثقين أن الخبث

لا بد أن يذهب وأن الطيب هو الذي يبقى وسترون أنه لن يكون إلا ما يسر أهل الإيمان سواء كان هذا في الدنيا أو في الآخرة.

(قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

ثم يأتي هنا بعدما بيّن -عزّ وجلّ- في الآية السابقة أن عاقبة هؤلاء المنافقين هي العذاب في الدنيا أو الآخرة، بيّن أنهم إن أتوا بشيء من أعمال البر، وهذا شيء مهم جدًا أن نفهمه، فإنهم لا ينتفعون بها في الآخرة، وهذا تأكيد على أن أسباب العذاب في الدنيا والآخرة مجتمعة في حقهم وأن أسباب الراحة والخير زائلة عنهم في الدنيا وفي الآخرة.

حتى لو قال أحد: (هؤلاء عندهم أعمال خيرية) سواء كان هذا في حق المنافقين أو في حق الكافرين، لكن السياق هنا بيّن أن هذا في حق المنافقين، فرب العالمين يقول لهم: (أنفقوا من أموالكم، سواء كان هذا الإنفاق طائعين من قبل أنفسكم أو كارهين مخافة اللوم أو مخافة الأخذ، في كل الأحوال سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل الإنفاق منكم!)

وعدم القبول للطاعة أكثر ما يخيف المؤمن! لكن هؤلاء لماذا لا يقبل منهم؟

من أجل أن نحذر حالهم (إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) هذه علة عدم القبول؛ كونهم فاسقين. وهذا دليل أن الفسق يحبط

الأعمال لأن الله تعالى بيّن أن نفقتهم لا تقبل البتة وعلل ذلك بكونهم فاسقين، فلا يقبل الله أعمالهم ولا يثيبهم عليها ولا يمدحهم عليها.

ما معنى الفسق؟ وهنا نؤكد على المعنى الرئيسي في الفسق الذي يسبب عدم قبول العمل، وهو أن يكون القلب والعياذ بالله في تقربه لله مظهرًا الاستغناء عن الله، يتقرب إلى الله وهو يشعر أنه مستغنٍ عن الله، مستغنٍ عن طاعة الله، لا يشغله رضا الله، إنما الذي يشغله هو أن يظهر بمظهر مقبول عند الخلق، أو مقبول عند من يريد أن ينظروا إليه، فهذا هو الفسق الذي مبناه على الخروج عن طاعة الله والانكسار بين يدي الله، والرغبة فيما عند الله.

فالواجب بعدما عرفنا أن هؤلاء لا تقبل أعمالهم لأنهم فاسقون أن نكون حذرين من هذا الفسق، وسيتبين مباشرة هذا المعنى في الآية التالية:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

لماذا لا تقبل صدقاتهم؟ ما الذي منع صدقاتهم أن تقبل؟ بين الله صفة فسقهم وأعمالهم، إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، هذا السبب الذي منع أعمالهم من القبول وهو عدم الإيمان.

وهم يؤدون هذه العبادات لم يكن في قلوبهم رغبة إلى الله ورهبة منه، يقومون بهذه العبادات وهم يشعرون، والعياذ بالله، بالاستغناء عن الله، يقومون بهذه العبادات وهم لا لله محبين، ولا من فضله راجين، ولا من عقابه خائفين، فهؤلاء فاسقون، لماذا لم يقل عنهم إنهم كافرون؟ في الآية التالية بيّن -عزّ وجلّ-: (إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) لكن هؤلاء يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، فسقوا يعني خرجوا من ظاهر الإيمان إلى الكفر.

قد تبيّن وصف وجدانهم كي يكون؛ لأن كثير من الناس يسأل هل هؤلاء المنافقين يعرفون أنهم منافقون؟

الأشياء تعرف بأوصافها، فإذا كان في القلب استغناء عن الله، وعدم حب لله ورغبة فيما عند الله وخوف من عذاب الله، وشعر الإنسان بعدم الاهتمام، فهذا كله يخرج الإنسان من وصف الإسلام إلى وصف الكفر، لكن من طريق النفاق.

فبيّن -عزّ وجلّ- أن هؤلاء كانوا يحسبون أن هذه الأعمال تنفعهم وأنهم يستطيعون أن يخدعوا رب العالمين، وهذا لأنهم لا يعرفون حقيقة الدين، والأصل في الإقبال على رب العالمين إنما هو بقلب مليء باليقين بعظمته وجلاله وكبريائه واستغنائه عن خلقه، ومنته على خلقه أن خلقهم وأعطاهم وقواهم وفضلهم، وأرسل إليهم رسله وأنزل على الرسل الكتب لتهديهم وليفوزوا، كل هذه معاني يجب أن تظهر في

قلب أهل الإيمان فيعرفون غنى الله عن الخلق، ويعرفون حاجتهم هم لطاعة الرب -سبحانه وتعالى-.

هؤلاء كفروا بالله، وحقيقة كفرهم ما وقع في قلوبهم، لهم أعمال لكن انظر إلى صفة أعمالهم:

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ) غاية في التثاقل، لا يكادون يفعلونها من ثقلها، هذا الخبر أتى عنهم في سورة النساء، فتعرف الآن أن الصلاة والكسل فيها، الكسل يصيب كل الناس والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- أمرنا بالتعوذ من الكسل، لكن المقصود هنا أن هذا الكسل في طاعة الله والذي يقابله نشاط في الدنيا، هذا الكسل ما عولج، ولا حورب، ولا الإنسان قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ولا ذكر الله لأجل أن يعطيه نشاطا ولا قال: (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) ولا لام الإنسان نفسه على أنه كسلان، إنما هذا الكسل يأتي معه كثير من الترك للعبادة، وترك للطاعة، ويجمع الفرض إلى ما بعده كأنه لا يدري أن الصلاة إنما هي كتاب مؤقت بوقت، فهذا هو الأصل؛ الصلاة الوقت، فيجمع الصلاة إلى ما بعدها من غير عذر، وتجد هذا ديدنه، وفرق بين أن يكون إنسانًا غير مهتم، ليست الصلاة محور حياته، وليس الأوقات هي الصلاة عنده.

وأن يكون من أهل الإيمان الذين يقولون: (نتقابل بعد صلاة المغرب، نتفاهم بعد صلاة الظهر، ننهي هذا الأمر بعد صلاة

العصر) سبحان الله، شيء عجيب لأن حياتهم مرتبطة بالصلاة؛ لذلك منذ الصغر، مهما كانت هناك مقاومة من الصغار يجب أن يكون هناك توجيه دائم للربط بين الوقت وبين حق الله في الصلاة، هذا الوقت وقت الله، هذا الوقت وقت الصلاة، الآن الصلاة، متى تقوم تصلي؟ قم صلِّ، حتى لو لم يحصل تنفيذ في الصغر لكن يشعر بالحياة أن هذا وقت الله وهو يصرفه لغير الله، ومرة على مرة تبدأ الحياة تتحدد معالمها بهذه الصلاة.

هذا موضوع يطول نسأل الله أن يفتح لنا فيه فتحًا جميلًا، وهو موضوع تربية الأبناء على الصلاة لأنها الفارق الحقيقي بين أهل الإيمان والكفر، الفارق الحقيقي بين أهل الإيمان والنفاق، ولا يستهان بهذا الشأن، ولا نخرج بأحكام فقهية في كون أن تارك الصلاة يكفر أو لا يكفر، ليس هذا موضوعنا، إنما الموضوع وقت التربية أن من التزم بالصلاة قد تمسك بحبل الدين الوثيق، ومن أفلت الصلاة فقد أفلت حبل الدين ولا يستطيع أحد أن يقول خلاف ذلك، وصفات أهل النفاق أنهم يصلون كسالى، المنافقون يصلون (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ) هنا الذم على أنهم حين يأتون الصلاة يأتونها كسالى، هم يأتون الصلاة ، لكن يلامون على أنهم كسالى فكيف بتارك الصلاة، والعياذ بالله.

نأتي لصفة أخرى على أهل الإيمان العناية بها، عناية مهمة جدًا وهي مسألة الإنفاق، وتعويد النفس، وتعويد الأبناء عليه،

وهو الإنفاق والنفس مشروحة لأن هؤلاء المنافقين لا ينفقون إلا وهم كارهون، فنحن نعالج نفسنا ونعالجها حتى تنشرح؛ لأن أهل النفاق لا ينفقون إلا وهم كارهون، من غير انشراح صدر ولا ثبات نفس ولا يشعرون أنها عند الله عظيمة، وأن الله هو الذي أعطى -سبحانه وتعالى-؛ لذلك قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- : «أدُّوا زكاةَ أموالِكم، طَيِّبَةً بها أنفسُكم»[3].

المقصد أن هؤلاء، خلاف أهل الإيمان تمامًا، لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة.

ها هم يصلون وها هم ينفقون، نعم! لكن حين تخلفت العقيدة القلبية أتت المسالك غير مرضية، قيام للصلاة وهم كسالى وإنفاق وهم كارهون، لا فائدة، وإنما أهل الإيمان يأتون نشيطين بقلوبهم راغبين بذلك. وعندما تثقل أبدانهم في الصلاة يسألون الله، الذي وهبهم هذه الأبدان، أن يعينهم عليها، وأن يجعلها أداة مطواعة لهم، فتجد الإنسان يكرر (لا حول ولا قوة إلا بالله) حتى يقف بين يدي الله كما ينبغي، وتجد الإنسان يراجع نفسه ويخاصمها، حتى تنفق منشرحة الصدر يرجو ذخرها وثوابها عند رب العالمين، فلنكن كذلك ولا نتشبه بالمنافقين، نعوذ بالله أن نشبه المنافقين.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

()[3]

ولنعلم أن الواجب علينا، كما أمرنا ربنا: ألا يعجبونا أبدًا، ألا يعجبنا أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، حين تجد مظاهر الإيمان قد انسلخت منهم، وتجد أنهم لا عناية لهم بالقرآن ولا بالإيمان ولا بأعماله، وهم معنا في المجتمع، نجتمع معهم، وقد يكونون أقاربنا، نرجو لهم الخير، لكن لا ننظر لهم أبدًا بأي عين انبهار لأي شيء من دنياهم أبدًا، وإنما نعرف أن هؤلاء لا غبطة في أموالهم، وأن هذه الأموال والأولاد بركاتها منزوعة لأنهم قدموها على ما يريد رب العالمين، وقد مر معنا أن الأموال والأولاد فتنة، فقد يكونون سببًا، والعياذ بالله، أن يبتهج بهم الإنسان ابتهاجًا، ويستغني بهم استغناء يسبب له الاستغناء عن طاعة الله. ثم ننظر على هذا البلاء الذي أخبر به رب العالمين ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4] نعوذ بالله.

هذه الأموال وهذه الأشياء التي تعجب الناس وأصحابها يكونون مفتخرين بها ويشعرون أنه لا أحد عنده مثلها، وتجد نفوسهم قد استغرقت فيها وانقطعت عن الله، لا بد أن نفهم أن الله أراد بذلك عذابهم، فلا تعجبك هذه أبدًا، وإنما أراد الله عذابهم بهذه العطايا؛ لأنهم لم يستخدموها كما أراد الله.

«الدُّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ»[5] وإذا كثرت وتوالت استغرقت النفس فيها وانصرفت فيكون هذا سبب لحرمانهم من ذكر الله،

---

[4]() التوبة: 55.

[5]() أخرجه مسلم (2742).

ثم يحصل في القلب قسوة وقوة، وكلما كان المال والجاه أكثر كانت تلك القسوة أكثر إذا لم يهذب الإنسان نفسه.

لذلك قال تعالى في سورة العلق، أول سورة نزلت في القرآن: (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ). فكثرة الأموال والأولاد عند من لم يتق الله، ولم يؤمن بالله، ولم يجعل ذلك سببًا لطاعة الله، تكون سببًا قويًا في زوال حب الله، وحب الآخرة في القلب، وفي حصول حب الدنيا وشهواتها في القلب، فعند الموت كأن الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مواضع الأقرباء والأحباء، إلى موضع الكربة والغربة، فيعظم التألم وتقوى الحسرة ولا تسأل بعد ذلك في يوم الحساب ماذا يكون. فنعوذ بالله، أصبحت سببًا للعذاب في الدنيا ثم، والعياذ بالله، تكون سببًا لأن تزهق أنفسهم وهم كافرون؛ لأن كل يوم يزداد حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الله ومراضيه، فيتحول الإنسان من ضعف الإيمان، إلى النفاق، إلى الكفر، إلى تركه الدين كاملًا، فلا تبقى إلا أسماء وربما حتى هذه الأسماء تزول عن الإنسان، نعوذ بالله أن نفتن، نعوذ بالله أن تعجبنا هذه الأموال.

عندما يخبرنا ربنا عن صفاتهم يأمرنا ألا تعجبنا أموالهم وأولادهم، فمن علامات الإيمان: ألا تعجبنا أموال وأولاد المنسلخين عن الدين ولا علاقة لنا بالحكم عليهم، نسأل الله أن يعودوا إلى الحق، نحب لهم العودة إلى الحق لكن هذه الحال

لا تعجبنا أبدًا ولسنا بحال انبهار بها ونعلم أن وبالها عظيم وخطير، نعوذ بالله من الخذلان.

نسأل الله إيمانًا راسخًا، نسأل الله وهو الذي يقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على طاعته.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.